الأمانة العامة لدور وهيئات الإفتاء في العالم

GENERAL SECRETARIAT FOR FATWA AUTHORITIES WORLDWIDE

بحوث مؤتمر الأمانة العامة
لدور وهيئات الإفتاء في العالم
تحت عنوان

دور الفتوى في استقرار المجتمعات

٢٦-٢٨ محرم ١٤٣٩ هـ ١٧-١٩ أكتوبر ٢٠١٧ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نقد الدين المحض

يقدمه

مصطفى إبراهيم سيريتش

المفتي العام في البوسنة سابقاً

الجزء الأول بالعربية

-

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد صلى الله عليه وعلى من تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

قال الله سبحانه وتعالى: {شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].

عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيها أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داعٍ يدعو يقول: يا أيها الناس! اسلكوا الصراط جميعًا ولا تعوجوا، وداعٍ يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: ويلك! لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه. فالصراط: الإسلام. والستور: حدود الله. والأبواب المفتحة: محارم الله. والداعي من فوق: واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم)) "أحمد والحاكم وصححه الألباني".

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، فإن أهون عليكم في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذٍ تعرضون لا تخفى منكم خافية.

وبعد

فإن الأسئلة التي تدور في نفسي وفي نفس العلماء المسلمين الذين أتقاسم معهم الظروف الابتلائية اليوم والتي يعيشها المسلمون عامة حول العالم هي كالآتي:

كيف يمكن أن أومن بالله؟

كيف يمكن أن أعمل لله؟

كيف يمكن أن أنقذ نفسي من الضلال؟

نعم، أنا مسلم، والحمد لله! نعم، أنا مسلم من أوروبا، وبالتحديد، أنا مسلم من البوسنة، وهو بلد صغير بالمساحة، لكنه كبير بتاريخه الديني والثقافي المتميز. في الحقيقة، أنا أحد الناجين من الإبادة الجماعية (Genocide) التي تعرضت لها بسبب ديني، لكنني أريد أن أتحدث اليوم ومن هذا المنبر الشريف للعالم كله ضد الانتقام والعنف والإرهاب باسم الإسلام؛ لأن الإرهاب بصفته الانتقام والعنف ليس من الإسلام في شيء. إذن، إنني مستعد للتحدث ضد العنف الديني باعتباري أحد ضحايا الإبادة الجماعية، ولكوني مَدْعُوًّا لتنقية ديني وإيماني من العنف الذي يرتكب باسم الله سبحانه، سبحانك ربك رب العزة عما يصفون وعما يقولون وعما يشركون. وبما أنه أُتِيحَتْ لي فرصة بأن أتحدث اليوم أمام هذا الجمع النبيل وفي هذا البلد المتحضر والعريق والحبيب وأمام هؤلاء العلماء المسلمين الأجلاء ذي النوايا الحسنة، فقد اخترت العنوان لحديثي هذا: "نقد الدين المحض"، لأنني كنت أعتقد أنه من الأنسب لي أن أتحدث عن هذه المسألة لكي أعرض عليكم ما في ذهني، حيث أتعرض معكم أيضًا لواحد من أكبر تحديات عصرنا، ألا وهو الإرهاب العالمي وعلاقته بالدين وكيف نستطيع نحن العلماء المسلمين أن نعالج هذه المصيبة القاتلة وهذه الفتنة الكبرى التي وقعت علينا اليوم ظلمًا وجورًا، كيف يمكن أن نعالجها بالعقل السليم والنفس الأمينة.

دعني أَقُلْ بأننا بحاجة ماسة الي النَقْدِ الذَّاتِيّ بالصدق والأمانة فلذلك أرى أن محاولة "نقد الدين المحض" ليست بأي حال من الأحوال عملًا معاديًا للدين، بل على العكس من ذلك، إن "نقد الدين المحض" هو جهد روحاني ومعرفي لقياس قوة الدين في صورته الظاهرة الملموسة وصورته الباطنة المكتومة (أو في صورته السامية المتميزة)، فإذا كان "نقد العقل المحض"، كما تصوره إيمانويل كانْتْ (Kant Immanuel)، مشتقًّا من أسئلة مثل: ماذا يمكن أن أعرف؟ وماذا يمكن أن أفعل؟ وماذا يمكن أن آمل؟ "فإن نقد الدين المحض" مستمد من أسئلة مثل: كيف يمكن أن أؤمن بالله؟ وكيف يمكن أن أعمل لله؟ وكيف يمكن أن أنقذ نفسي من الضلال؟ وفي الواقع إن "نقد الدين المحض" يتماشى مع خط التحذير القرآني الواضح: {أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ} [العنكبوت: ٢].

إنني أود أن أشير إلى أن الفيلسوف المسلم الغزالي (١٠٥٨ – ١١١١م) سبق الفيلسوف الألماني إيمانويل كانْتْ (١٧٢٤ – ١٨٠٤م) في الإشارة إلى أن العقل البشري يسعى جاهدًا للحصول على قوة القياس الذاتي حتى يوفر لنفسه الضرورات الخُلقية الرفيعة وأن يكون قاضيها وهيئة محلفيها. وفي الواقع، إن الغزالي ألمح إلى دور العقل في كتاب "مشكاة الأنوار" (١٧) بقوله: "سلطان العقل الذي هو ميزان الله في الأرض". ومع ذلك، فإن الدين ليس العقل المحض، بل الدين المحض أكثر من العقل المحض، وبالتالي فإن العقل لا يمكن أن يكون ميزانًا محضًا للدين المحض. إنني أعلم أن العقل اليوم يُسْتَدْعَى ليكون ميزانًا لكل شيء، حتى للدين أو للإيمان نفسه، لكنه في نهاية المطاف يعجز عن أن يكون ميزانًا للدين أو الايمان. حتى الدين نفسه لا يقدر على أن يقيس نفسه؛ لأن الدين المحض يعتمد على المقياس السامي لقيمته، وهو المقياس الإلهي المطلق. وهذا يعني أن الدين يقبل مقياس مَنْ هو أعلى، أو بالأحرى القاضي الأعلى وهو الله، وليس بالضرورة أن يتم ذلك "هنا" و"الآن"؛ لذا لا ينبغي لنا نحن البشر العاقلون أن يحكم بعضنا على البعض حول دين أو إيمان كل منا، "هُنا" و"الآن". {ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ} [الحج: ٦٩]. عليه، فإن العقل المحض لا يعلو على الدين المحض، بل الدين المحض يعلو على العقل المحض، وهذا هو بالضبط ما لا يفهمه العقل حقًّا. يود العقل أو الهوى من العقل أن يفرض نفسه ليكون الميزان النهائي للدين أو للإيمان، لكنه يعجز عن ذلك لأنه يستمد قوته من قوة الإيمان. إن العقل يشعر بتفوق الإيمان عندما يصل الأمر إلى نهايته على الأرض؛ لأن الإيمان بالله يَبْقَى حَبْلَ النجاة الوحيد للإنسان في الآخرة.

وكما نعلم، فإن الإنسان لديه ثلاث قوى تتجلى من خلالها قوة الإيمان السامية، وتلك القوى هي: قوة القلب، وقوة العقل، وقوة اليد. القلب لديه القوة البشرية في الاعتقاد. والعقل لديه القوة البشرية في الفكر. واليد لديها القوة البشرية في الأخلاق. وهذه القوى البشرية الثلاث لديها معا "قوة بشرية عظمى" واحدة، وهي الإيمان المحض بالله. وإن أي نقص في إحدى تلك القوى الثلاث الروحية والعقلية والجسدية عند الإنسان يزعزع استقراره ونجاته. إن "نقد الدين المحض" هو التحري الفردي عن كلٍّ من هذه القوى الثلاث. ومع ذلك، فإن الأهم من ذلك هو التحري الكامل عن "القوة البشرية العظمى"، باعتباره الظهور المتناسق بين الألوهية السامية للروح والروح البشرية.

إن الروح نشأت من جذور روح الله؛ لذا فإن الروح البشرية هي انعكاس لروح الله: {ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ} [السجدة: ٩]. وبالرغم من أن الروح البشرية تأتي من روح الله، إلا أنها لا تتساوى مع روح الله. إن ثمرة التفاح تأتي من جذور التفاح، لكنها ليست نفس جذور التفاح. وكما لا يمكن أن توجد ثمرة التفاح بدون جذور التفاح، فلا توجد روح الإنسان بدون جذور الروح البشرية، التي هي روح الله. إن الإيمان الصادق هو "روح الله"، التي تلمس قلب الإنسان وعقل الإنسان ويد الإنسان.

إن قوة القلب هي قوة الإيمان، وقوة العقل هي قوة الرشد، وقوة اليد هي قوة الأخلاق. فالقلب يتضمن قوة العقيدة أو الهرطقة، والعقل يتضمن قوة المعرفة أو الجهل، واليد تتضمن قوة العدل أو الظلم.

وفقًا للعقيدة الإسلامية فإن الإنسان خُلِقَ من الطين، وخُلِقَت الملائكة من النور، وخُلِقَ الشيطان من النار. وفي الأرض لدينا النور والنار. ويأتي النور على النار الملتهبة. والإنسان هو من طين، فهو على الأرض وتحت الأرض. والإنسان هو توليفة من نور الملائكة المضيء ونار الشيطان الملتهبة. نور الملائكة هو عقل الإنسان. ونار الشيطان هي شهوة الإنسان. والإنسان تراب يشع نورًا ونارًا ملتهبة. والملائكة تضيء عقل الإنسان بنورها، بينما يلهب الشيطان بناره الشهوة عند الإنسان. والإنسان تراب بين نور الملائكة ونار الشيطان. إن هذا يبدو وكأنه تلاعب بالكلمات، لكن في الواقع النور والنار هما الطريقان اللذان يسلكهما الإنسان – طريق النور أو طريق النار. في طريق النور يرى الإنسان كل ما حوله وَمَنْ خلفه وبين يديه، وفي طريق النار لا يرى الإنسان سوى النار بين يديه والظلام والرماد وراء ظهره. النار أشد قوة وأكثر تدميرًا من النور. النار مهيجة ومرعبة. والنور متواضع، ولطيف، ويمكن التنبؤ به، وهو أحيانًا ممل، لكنه ليس خبيثًا أبدًا، ولا يترك الإنسان في الظلام البتة، ولا يتناثر في الرماد.

إنني لن أفهم أبَدا لماذا يتحسر الإنسان لأنه لم يخلق من النار؟ ولو أنه لم يتحسر لذلك لما استفزه إبليس بخطابه العنصري حينما قال: "أنا خير منك، لأني خلقت من النار وأنت خلقت من الطين" {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ} [الأعراف: ١٢]. كما أني لن أفهم أبدًا لماذا يحب الإنسان اتباع إبليس الذي يكره الإنسان أكثر من أي مخلوق آخر؛ لأن الله أمره بالسجود لآدم؟! إنني أتعجب من انقياد الإنسان لإملاءات الشيطان، الذي يدفعه إلى النار، ورفضه الانصياع لأوامر الخالق الذي يأخذ بيده إلى النور! نعم، هذه هي الحقيقة التي أريد أن تُفْهَم هنا، وهي أن الإنسان لا خيار له سوى الانصياع للإملاءات (Dictates). والواقع أن الإملاء هو مصيره. إنها ليست طبيعته المستقلة، ولا إرادته المنفردة، بل هي طبيعته وإرادته التي هي إملاء أيضًا يحدد جوهر كينونته. وجوهر كينونته هو قوة معرفته، وتلك المعرفة لا تورث، بل إن الإنسان –رجلًا كان أو امرأة– يبدأ منذ البداية بالقراءة والتعلم والتعرف على المعرفة الخاصة بذاته. فالإنسان لديه حرية اختيار واحد أو أكثر من الإملاءات، لكنه لا يملك خيار العيش بدون إملاءات البتة.

إن أصعب شيء هو المحافظة على فكرة "الدين المحض" باعتبارها إملاءً للإيمان بالله، صافية ونظيفة من أنصاف الحقائق (half truths) وأنصاف الأكاذيب (half lies)، فالكذبة الصريحة واضحة يستطيع الإنسان حماية نفسه منها؛ والحقيقة الصرفة نقية يقدر الإنسان بسهولة أن يقبلها، لكن أنصاف الحقائق (half truths) وأنصاف الأكاذيب (half lies) هي غامضة وملوثة ومن الصعب على الإنسان أن يصدَّها ويحمي نفسه منها، وهذا ما يجعلنا

بحاجة إلى "نقد الدين المحض" الذي يمكننا من خلاله أن نتعلم كيف نحارب أنصاف الحقائق وأنصاف الأكاذيب، تلك الظواهر التي تمثل اليوم العبء الأكبر على مجتمعنا المسلم وفي العالم بأسره كذلك. ويجب على العلماء المسلمين أن يولوا اهتمامًا وثيقًا لهذه الظواهر، ليس فقط في عدم الوقوع ضحايا لأنصاف الحقائق وأنصاف الأكاذيب، بل حتى لا ينتجوا بأنفسهم –بقصد أو بغير قصد– أنصاف الحقائق وأنصاف الأكاذيب من خلال فتاواهم، من أجل تحقيق مكاسب شخصية، ناهيك من أولئك الجهلاء المتطرفين الذين يقولون ما لا يعلمون ليشتروا ثمنًا قليلًا أو ليضلّ شرذمة **قليلة من الناس**. إن العلماء المسلمين لم يواجهوا في تاريخهم إغراءً أكبر من الإغراء الذي يواجهونه اليوم والمتمثل في الوقوع في فخ أنصاف الحقائق (half truths) وأنصاف الأكاذيب (half lies)، ونحن لا نعرف أيهما أسوأ، أنصاف الحقائق أم أنصاف الأكاذيب، رغم أن أنصاف الحقائق هي أشد فتكًا وخطورة، وقد جاء في القرآن الكريم {**وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ**} [البقرة: ١٩١]. حتى إن دانتي أليجيري (Alighieri Dante)، الذي درس في الأندلس المسلمة، صنف الخائن مباشرة مع الشيطان في الدائرة التاسعة من الجحيم، في حين أنه ترك القاتل في الدائرة الثامنة. من الضروري علينا العلماء المسلمين في زمن أنصاف الحقائق وأنصاف الأكاذيب "الفتنة الكبرى" المحافظة على "الدين المحض"، وعلى "الضمير الصافي". هذه هي رسالتي الرئيسية اليوم في هذا المؤتمر الكبير.